المجموعة العربية الحضارية بين الماضي و المستقبل

www.arabpsynet.com/Documents/DocSuddadGroupArCiviPast&Fut.pdf

د. سداد جواد التميمي *
استشاري أمراض النفس - كاردف. المملكة المتحدة
sudad.jawad@btinternet.com

لم يثور الانسان العربي ليبدل نظاماً باخر الا من اجل التخلص من التخلف و اوبئة اجتماعية مزمنة. ليست هناك وصفة معينة للتخلص من الامراض الاجتماعية، و ان لم يكتسب الانسان العربي الحرية و يفلح النظام السياسي الجديد في تلبية احتياجاته الناقصة فسيشهد حركة بعد اخرى حتى يصل الى اهدافه المشروعة

نشر موقع " شبكة العلوم النفسية العربية" في الآونة الاخيرة عدة مقالات يمكن تلخيصها بان هناك نظرة عامة هي ان العرب مجموعة بشرية تعني بالاعتزاز بالماضي و لا تتطلع الى المستقبل. رغم ان المقالات المتعددة حرصت على استعمال الوصف العرقي للمجموعة البشرية، و لكن الوصف الادق الذي يمكن استنتاجه من قراءة المقال الاول للدكتور الفاضل أ. قاسم حسين صالح و الردود و التعليقات هو ان المجموعة البشرية المقصودة هي المجموعة العربية الاسلامية. لا أظن ان اطار هذه المجموعة و محتواها يشمل المجموعات البشرية العربية الغير الاسلامية و لا قيم حضارية عربية قبل الاسلام.

كان المقال جريئاً و مواكباً لحدوث عدة ازمات في العالم العربي، و لكنه ايضاً يتعلق ايضاً بالمؤسسات السياسية الجديدة التي ظهرت بعد الربيع العربي. رغم ذلك فان الجزم بان العرب يكتفون بالنظر الى الماضي دون المستقبل مقارنة بغيرهم من المجموعات البشرية راي يثير الكثير من النقاش . ليس هناك مجتمعاً لا يتفحص تاريخه و يدرسه بصورة علمية، و يتوسع و يدرس و يحلل تاريخ المجتمعات الاخرى. كذلك ليس هناك مجتمعاً لا يسعى الى تطوير نفسه و يثور على الفساد و الطغيان مهما طال به الزمن.
قبل التطرق الى صفات هذه المجموعة البشرية التي تعني بالماضي دون المستقبل يستحسن مراجعة قواعد متفق عليها في قيام الحضارات البشرية.

ان الجزم بان العرب يكتفون بالنظر الى الماضي دون المستقبل مقارنة بغيرهم من المجموعات البشرية راي يثير الكثير من النقاش

ليس هناك مجتمعاً لا يسعى الى تطوير نفسه و يثور على الفساد و الطغيان مهما طال به

ولادة الحضارات:

تكتسب المجموعة البشرية تعاليم من جراء تفاعلها بالبيئة و تعامل افرادها بعضهم مع بعض. من جراء ذلك تظهر مفاهيم عند هذه المجموعة البشرية ناتجة من التعاليم التي

الزمن

اكتسبتها. بعد ذلك تتطور التعاليم و المفاهيم الى مقترحات تعتمد على موقع تلك المجموعة البشرية جغرافياً، و تعمل على تحريك المجموعة من اجل البقاء و التنافس مع غيرها من المجموعات البشرية المحيطة بها(1).

ان عملية اكتساب التعاليم Percepts و تطورها الى مفاهيم Concepts و من ثم الى مقترحات Propositions عملية حركية قابلة للتحوير اعتمادا على المكان و الزمان، و ألاهم من ذلك نجاحها في سد الاحتياجات الناقصة للمجموعة البشرية التي لم يتم تلبيتها و التي بدورها حيوية لبقاء المجموعة.

ان عملية اكتساب التعاليم Percepts و تطورها الى مفاهيم Concepts و من ثم الى مقترحات Propositions عملية حركية قابلة للتحوير اعتمادا على المكان و الزمان

مع مرور الوقت تتحول العملية الاجتماعية النفسية الى عملية انجاب معتقدات Beliefs و التي يمكن تعريفها بانها مقترحات صادقة شرعية غير مزيفة لا جدال فيها ضمن افراد المجموعة. هذه المعتقدات بدورها تتحول الى قيم Values يتمسك بها افراد المجموعة و يتوارثها الجيل بعد الاخر، و يعملون على تصنيفها هرمياً على مقدار اهميتها و قوتها.

مع مرور الوقت تتحول العملية الاجتماعية النفسية الى عملية انجاب معتقدات Beliefs

بعدها تتحول القيم و المعتقدات الى وصفات Recipes يستعملها افراد المجموعة الى تنظيم جهودهم لإنجاز المهمات و الواجبات التي على عاتقهم.

يوضح هذا المخطط العملية الاجتماعية النفسية في اي مجموعة حضارية بشرية منذ قديم الزمان.

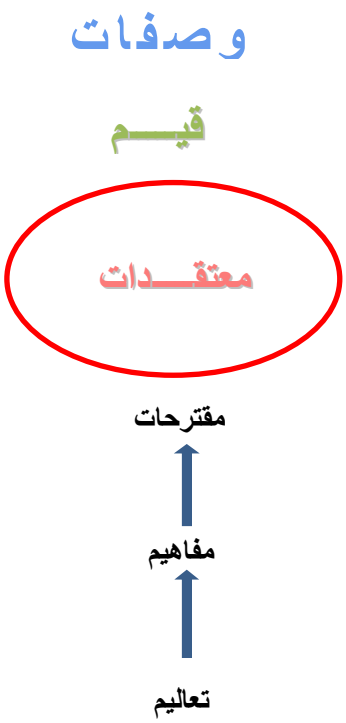

المعتقدات بدورها تتحول الى قيم Values يتمسك بها افراد المجموعة و

المجموعة العربية عبر التاريخ:

يمكن دراسة المجموعة الحضارية العربية او بالأدق العربية الاسلامية من هذا المنظار. اكتسبت المجموعة تعاليم خاصة بها تحولت الى مفاهيم و معتقدات ظلت سائدة حتى انهيار الدولة العثمانية او كما يفضل البعض استعمال مصطلح الخلافة العثمانية. كانت الدولة العثمانية في صراع مستمر مع غيرها من الحضارات و لكنها لم تفتح ابوابها للنهضة الاوربية التي حدثت مع اطلالة القرن السادس العشر و القريبة من حدودها. كان تفاعل

الدولة العثمانية مع النهضة الاوربية تفاعلاً طبيعياً و توقفت عملية التطور و اغلقت حدودها خوفاً من ان تجرفها امواج الغرب و تستعيد منها القسطنطينية.

مثل هذا التفاعل السلبي أعلاه لا تصعب ملاحظته اليوم على مستوى الافراد و المجموعات البشرية الصغيرة في المهاجرين من العالم الشرقي و العربي في أوربا. هناك الكثير من المهاجرين الصينين الذين لا يتكلمون سوى اللغة الصينية الى اليوم في أوربا، و ترى المجموعات العربية و الكردية في العالم الغربي اشداً تمسكاً بالمعتقدات و القيم و الوصفات التي تم توارثها في الوطن الام.

غير ان هذه المعتقدات و القيم تتأثر بالقوى الاجتماعية و الاقتصادية في البيئة الجديدة. متى ما نجحت البيئة الجديدة في تلبية الاحتياجات الناقصة لهذه المجموعات، تبدأ عملية ولادة تعاليم و مفاهيم و معتقدات جديدة. متى ما فشلت المجتمعات في تلبية الاحتياجات الناقصة للمجموعات الصغيرة، و تنجح بتهميشها تبدأ عملية ولادة التطرف و الغلو ضمن هذه المجتمعات و التي تتحول مع الوقت الى عملية صراع غير متكافئ.

لا تقتصر هذه العملية على العصر الحديث و يمكن دراسة و متابعة العديد من حركات الغلاة التي ظهرت ايام الدولة الاموية للتعرف على هذه العملية الاجتماعية النفسية. ولدت الكثير من هذه الحركات من جراء قلق الدولة من دخول مجموعات بشرية جديدة في الدين الاسلامي و تم تهميشهم اقتصادياً و اجتماعياً. تحالفت المجموعات الجديدة بدورها مع مجموعات عربية لم تفلح السلطة في تلبية احتياجاتهم الناقصة. ولدت المجموعة بعد الاخرى، و رغم ان التاريخ العربي الاسلامي يمر على هذه الحركات مر الكرام مستعملاً اشد التعابير قسوة في وصفها، و لكنها في النهاية لعبت دورها في نهاية الدولة الاموية مع قيام حركة عبد الله بن معاوية و المؤيدين له من غلاة الجناحية. لكن المؤخرين اهملوا ثورة بن معاوية و بدلاً من ذلك اسرفوا في التركيز على ابي مسلم الخراساني الذي قضى على بن معاوية اولاً، و بعدها على السلالة الحاكمة في دمشق(3).

بعد انهيار الكيان العثماني الذي ارسل المجموعة العربية نحو التخلف و اسرف في تهميشها لأسباب عرقية، تم طلاق العالم العربي من الحضارة التركية، و ولد العالم العربي الجديد و لكن ولادته كانت عسيرة و معقدة لا تخفى على اي قارئ. ظهرت حركات وطنية، قطرية و قومية، متعددة و متنوعة في فكرها. صاحبت عملية نمو الحضارة العربية الجديدة عوامل اقتصادية و اجتماعية و عالمية متعددة ظلت تعصف به الى يومنا هذا. من جراء ذلك يمكن ان نتوقع النتائج التالية:

1 نبذ و نسيان الماضي، و قيام حركة ليبرالية بحتة تقضي على البرجوازية المتسلطة على المجتمعات على حد قول ماركس و اينجل. شهد العالم العربي حركات قومية يسارية متعددة في القرن العشرين و التي لعبت دورها في احداث العالم العربي سياسياً و اقتصادياً. هذا الاتجاه لم ينجح في عكس مظاهر التخلف اعلاه، و فشل في قيام نهضة اجتماعية.

2 مع تحرر و استقلال العالم العربي تعرض العالم العربي الى اكثر من عملية ايذاء

يتوارثها الجيل بعد الاخر، و يعملون على تصنيفها هرمياً على مقدار اهميتها و قوتها

كانت الدولة العثمانية في صراع مستمر مع غيرها من الحضارات و لكنها لم تفتح ابوابها للنهضة الاوربية التي حدثت مع اطلالة القرن السادس العشر

عملية ولادة تعاليم و مفاهيم و معتقدات جديدة. متى ما فشلت المجتمعات في تلبية الاحتياجات الناقصة للمجموعات الصغيرة

و استغلال و على راسها كان قيام دولة اسرائيل بصورة لا مثيل لها في التاريخ. فشل العالم في حل مشكلة فلسطين الى اليوم، سياسياً و انسانياً، و بدأت المجموعة العربية تشعر بما نسميه احياناً في علم النفس بانتشار الهوية و بدأت تميل الى ممارسة الانشقاق Splitting في تعاملها مع المجموعات البشرية الاخرى شرقاً و غرباً. هذا الانشقاق لم يقتصر على المجموعات البشرية خارج الوطن العربي، و انما شمل الاقليات العربية غير الاسلامية، و الاقليات العرقية الاسلامية الغير عربية.

3 مصادر الطاقة عبر التاريخ و منذ الاف السنين كان لها دورها الفعال في ولادة الحضارات. وجد العالم العربي نفسه عرضة لمطامع الغرب في ضمان تدفق النفط و الذي نجح الى حد كبير في الهيمنة على العالم العربي بصورة مباشرة و غير مباشرة. رغم ان هذا التفوق في مصادر الطاقة بدأ يتغير و لكن العالم العربي لا يزال يشهد تنافساً بين الغرب و الصين في ضمان تدفق النفط. هذا العامل الاقتصادي لا يزال يلعب دوره بصورة ملحوظة في شؤون العالم العربي، و ما يهمنا في هذا الامر تأثيره على انتشار الهوية العربية من خلال العلاقات العربية الدولية.

جميع العوامل الثلاثة لعبت دورها في المعتقدات و القيم و الوصفات الحالية التي تميز المجموعة العربية التي عانت من التخلف الاقتصادي و الاجتماعي و السياسي لعدة عقود من الزمن. فشل النظام بعد الاخر في تلبية احتياجات الانسان العربي الواحدة بعد الاخرى، و لم تجد المجموعات العربية سوى الماضي و الدين الاسلامي تتوجه اليه. بدأت التعاليم الاسلامية تتحول الى مفاهيم و مقترحات يمكن التعبير عنها بمقولة يكثر سماعها و هي الاسلام هو الحل. رغم كل الانتقاد للتعاليم الدينية و لكن الحقيقة هي ان لا بديل افضل منها لتلبية الاحتياجات الروحية البشرية. بعدها تمسكت المجموعة البشرية بمعتقدات تحولت الى قيم و وصفات لمعالجة مشاكلها. هذه الوصفة هي دعوة الرجوع الى الشريعة الاسلامية لأدارة شؤون المجموعة اقتصادياً و علمياً و اجتماعياً.

من المحتمل ان الكلام اعلاه هو الذي دفع و يدفع الانسان العربي نحو التركيز على الماضي، و لكنه لا يختلف عن الكثير من المجموعات البشرية في ذلك. بعد حركة لوثر توجه الغرب نحو العهد القديم، وبعد ذلك نحو الحضارات الكلاسيكية. لم تحدث هذه العملية خلال سنوات و انما عدة عقود من الزمن. الحديث عن التوجه العربي نحو الماضي(الاسلامي) هو بصراحة الحديث عن الفكر الاسلامي الذي يسيطر على المجموعة العربية الراهنة، و الذي اصبح اكثر وضوحاً بعد الربيع العربي.

هناك مثال اخر على العملية التي تمت مناقشتها اعلاه يتمثل في مشاكل شمال نايجيريا و منظمة بوكو حرام. المتتبع لولادة الحركة الاخيرة يدرك دور الجنوب النايجيري في تهميش و دفع المجموعة الاسلامية الشمالية نحو التخلف و مارس معها جميع انواع الاضطهاد.

بعد انهيار الكيان العثماني الذي ارسل المجموعة العربية نحو التخلف و اسرف في تهميشها لأسباب عرقية، تم طلاق العالم العربي من الحضارة التركية، و ولد العالم العربي الجديد

مع تحرر و استقلال العالم العربي تعرض العالم العربي الى اكثر من عملية ايذاء و استغلال و على راسها كان قيام دولة اسرائيل بصورة لا مثيل لها في التاريخ

فشل النظام بعد الاخر في تلبية احتياجات الانسان العربي الواحدة

بعد الاخرى، و لم تجد المجموعات العربية سوى الماضي و الدين الاسلامي تتوجه اليه

لم يثور الانسان العربي ليبدل نظاماً باخر الا من اجل التخلص من التخلف و اوبئة اجتماعية مزمنة

يكتسب الانسان العربي الحرية و يفلح النظام السياسي الجديد في تلبية احتياجاته الناقصة فسيشهد حركة بعد اخرى حتى يصل الى اهدافه المشروعة.

متناقضة التطور:

هناك ظاهرة اجتماعية يتحدث عنها علماء التاريخ و الاجتماع و هي مفارقة او متناقضة التطور(2) Paradox of Development. تعصف بالمجتمعات البشرية بين الحين و الاخر عوامل تدفع بها نحو التخلف حضارياً و اجتماعياً و اقتصادياً. هذه العوامل التي عصفت بالعالم العربي عصفت بغيره من المجتمعات و منها تغير المناخ. العالم العربي من أكثر مناطق العالم جفافاً، و يتفق جميع العلماء بان العراق و اليمن و سوريا اكثر بلاد العالم مهددة بالجفاف التام و الاندثار جغرافياً، و كان لهذا العامل دوره في بلاد الصومال ايضاً. يضاف الى ذلك مشاكل التغذية و الامراض و هجرة السكان الى مناطق اخرى. كل هذه العوامل كان لها تأثيرها على المجموعة البشرية العربية، و دفعت به بتجاه التخلف و لكنها مع مرور الزمن حفزته ايضاً بالعمل من اجل التطور و بناء حضارة تنجح في تلبية احتياجات افراده. تدرك المجموعة البشرية بعد فترة زمنية بان وصفاتها فاشلة و من جراء ذلك تبدأ عملية تغيير القيم و المعتقدات. تصاحب هذه العملية عملية بناء اخرى تبدأ بتعاليم جديدة تتطور الى مفاهيم و تبدأ المجموعة بدراسة المقترحات الجديدة و وضع معتقدات جديدة خاصة بها.

لم يثور الانسان العربي ليبدل نظاماً باخر الا من اجل التخلص من التخلف و اوبئة اجتماعية مزمنة. ليست هناك وصفة معينة للتخلص من الامراض الاجتماعية، و ان لم يكتسب الانسان العربي الحرية و يفلح النظام السياسي الجديد في تلبية احتياجاته الناقصة فسيشهد حركة بعد اخرى حتى يصل الى اهدافه المشروعة.

ألمصادر:

1 هناك الكثير من المصادر التي تشترك في استعمال التعابير أعلاه. من اولى المصادر التي يكثر الرجوع اليها هو المصدر التالي:
Kroeber, A. L.; Kluckhohn, Clyde(1952). Culture: a critical review of concepts and definitions
Papers. Peabody Museum of Archaeology & Ethnology, Harvard University, Vol 47(1), 1952, viii, 223

2 تحدث عن هذا الموضوع الكاتب Ian Morris و اشار اليه في عدة مواقع. للمزيد من الاطلاع يرجى مراجعة كتابه :
Why The West Rules For Now(2011). Profile Books.

3 هناك الكثير من المصادر التي يمكن الرجوع اليها. و من اكثرها مراجعة:
Matti Mossa(1988). Extremist Shiites: The Ghulat Sects. Syracuse, N.Y.

**** ****

البحث في قاعدة بيانات السير العلمية

البحث في " السير العلمية" للأخباء النفسانيين
www.arabpsynet.com/CV/default.asp

البحث في " السير العلمية" للأخصائيي و اساتذة علم النفس
www.arabpsynet.com/CV/defaultPsychologists.asp